



## الدور التأسيسي للمخيال في المجتمع

### قراءة في المفهوم والوظائف عند كوننيليوس كاستورياديس

عبدالنور محمد

شعبة علم الاجتماع - قسم العلوم الاجتماعية - كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية -  
جامعة غرداية

الملخص -

حاولت هذه الورقة البحثية تقديم عرض معمق لأطروحة المفكر الفرنسي - اليوناني كوننيليوس كاستورياديس بخصوص طرح بدائل نظرية حول أسس المجتمعات الحديثة التي ارتبطت بالعقلانية بشكل مبالغ فيه، وانطلاقاً من النظرية المادية التاريخية حاول كاستورياديس تقديم إطار تفسيري جديد يستند إلى آلية المخيال بوصفها خاصية إنسانية تتجاوز التصورات السببية الصلبة إلى نوع من السيولة الوجودية التي تفتح الإمكان أمام المجهول، أو بعبارة أخرى أنها تتيح للإنسان الفرد والجماعة إبداع أسس جديدة يبني عليها الواقع الاجتماعي، تسلیماً بإمكان وجود لحظات خاصة في التاريخ يحصل فيها إنشاء قواعد نموذجية بديلة عن تلك السائدات التي عليها تتأسس مرحلة تاريخية جديدة، ذلك أن من أهم ما ينتج عن ذلك مراجعة تصور الهويات الاجتماعية والثقافية بما يمكن من إحداث تصورات تجعل التعايش أمراً ممكناً.

الكلمات الدالة -

كاستورياديس - العقلانية - السببية - المخيال - النظرية الاجتماعية.

## The Constitutive role of imaginary in society

### Abstract-

This paper offers a deeper illustration of Cornilius Castoriadis's theory, which allows theoretical alternatives to the foundations of modern societies that have exaggerated connections to rationalism. Using historical materialism, Castoriadis tries to formulate a new analytical framework that relies on the mechanism of the imaginary as a human ability capable of transcending the causal paradigm and move, thus, to a more fluid existential view that opens more possibilities for the future. In other words, the imaginary allows groups and individuals to create innovative social foundations and social realities. Of utmost importance is the recognition of historical moments that allow the development of alternative methodological foundations, different from what is commonly assumed at the time, to usher new historical eras. The ultimate result of this new critical consciousness is the examination and review of the manner in which social and cultural identities are imagined – a procedure that would make new grounds for coexistence possible.

### Keywords -

Cornilius Castoriadis, rationalism, causality, imaginary, social theory

بعيداً عن التأمل الفلسفـي المـهضـن، حـاول كـاستوريـاديـس ضـمن كـتابـه "الـتأـسيـسـيـنـيـلـيـخـيـالـيـلـلـمـجـتمـعـ" الدـفـعـ بـالـمـشـرـوعـ الإـيـديـوـلـوـجيـ إـلـىـ نـهـاـيـاتـهـ الـقـصـوـيـ سـوـاءـ فيـ مـنـطـلـقـاتـهـ الـذـاتـيـةـ أوـ فيـ مـنـطـقـهـ هـوـ، وـهـوـ مـاـكـرـسـهـ فيـ صـفـحـاتـ الـفـصـلـ الثـانـيـ منـ كـتـابـ الـتأـسيـسـيـنـيـلـيـخـيـالـيـلـلـمـجـتمـعـ<sup>1</sup>،

فـشـمـولـ عـوـاـمـلـ الـبـيـرـوـقـراـطـيـةـ عـلـىـ كـامـلـ قـطـاعـاتـ الـحـيـاةـ الـاجـتمـاعـيـةـ، معـ ظـهـورـ الأـزـمـةـ الـثـقـافـيـةـ منـ خـلـالـ انـهـيـارـ الـعـضـوـيـةـ الضـمـنـيـةـ لـلـأـفـرـادـ دـاخـلـهـ، كـلـهـاتـحـولـاتـ تـشـيرـ إـلـىـ دـخـولـ مـرـحـلـةـ جـدـيـدةـ لـمـ يـعـدـ مـنـ المـكـنـ مـعـهـاـ تـعرـيفـ الـاشـتـراكـيـةـ اـنـطـلـاقـاـ مـنـ مـجـرـدـ عـلـاقـاتـ إـلـاتـاجـ، حـيـثـ لـمـ يـعـدـ الـمـشـرـوعـ الثـورـيـ مـقـتـصـراـ عـلـىـ طـبـقـةـ مـفـضـلـةـ بـعـينـهـاـ بـلـ صـارـ

<sup>1</sup>- Sociologie et sociétés, Gabriel Gagnon, A la recherche de l'autonomie : Cornelius Castoriadis, vol.14 N°2, 1982, p 114

شاملاً لجمل المجتمع، فالحقيقة الثورية هي . حسب كاستورياديس . حركة شاملة تمس كل الناس الذين يكونون المجتمع وذلك لأن الحياة اليومية الفعلية تجمعهم.<sup>1</sup> ومن ثم فالحقيقة الشاملة التي أقامها كاستورياديس مع ماركس لم تنطلق من الاختلاف في وجهة النظر السوسيولوجية أو أنها كانت انطلاقاً من نظريته الاقتصادية، بل من خلال مسألة للمنطلقات الفلسفية ذاتها، وتحديداً فلسفة التاريخ التي تعتبر القاعدة الفكرية لماركس، إذ رأى كاستورياديس أن ماركس لم يقم في النهاية إلا بمحاولة تاريخ يجمع الأطياف الفكرية المكونة لمخيال تلك المرحلة، وهو ما ظهر في مفهومه عن الحتمية التاريخية الكونية، وهو اختزال يمنع تصور التاريخ بأنه مجال خلق وإبداع مستمر.

ضمن هذا السياق قدم كاستورياديس سنة 1964 مفهوم "المخيال الجذري"، فمن رغم أنه كان متضمناً في كتاباته السابقة، لكن دون أن يظهر بشكل واضح، وقد أصبح مفهوم المخيال بعد ذلك الاصطلاح المركزي منذ أن استطاع كاستورياديس اكتشافه، وسيعييناً مفهوم المخيال حسب كاستورياديس على فهم التاريخ بوصفه تجاوزاً للنموذج الاختزالي المرتكز على الحتمية السببية، والقائم في الوقت ذاته على مبدأ اللاسببية، بحيث يصبح من غير الممكن تفسير تاريخ المجتمعات انطلاقاً من علاقة حتمية للسبب والنتيجة، وهذا يعود تحديداً إلى طبيعة التاريخ كعملية ذهنية (التاريخ) بوصفه خلقاً ذاتياً (autocréation).<sup>2</sup>

وبحسب كاستورياديس فإن المستوى اللاسببي لا يظهر كسلوك غير متوقع فحسب بل هو أيضاً سلوك مبدع سواء كان ذلك على مستوى الأفراد، الجماعات، الشرائح الاجتماعية أو المجتمعات الشاملة، وأيضاً لا يظهر كفجوة بسيطة في النمط القائم، ولكن كوضعية جديدة في نمط سلوك جديد، ومن ثم يظهر كتأسيس لقاعدة

<sup>1</sup> – La Découverte/ Revue du MAUSS, Poirier Nicolas, Cornelius Castoriadis : L'imaginaire radical, N°21, 01/2003, p387

<sup>2</sup>- Ibid, p 387 p 388

اجتماعية جديدة، وكاختراع لشيء أو شكل جديد، وباختصار يظهر المستوى الlassiby كمعطى يتجاوز المقدمات، أو كمقدمة لوضع جديد.<sup>1</sup>

وهذا لا يعني أن التاريخ يحصل أو بالأحرى يتم خلقه وإبداعه انطلاقاً من لشيء، بل يعني أنه إنتاج غير محفز خارجياً، مخزون أولي من المعانٍ انطلاقاً وفقط من المجتمعات التي لها القدرة على أن تنشئ بها عالمها وتنظمه كحقيقة اجتماعية. تاريخية مميزة لها. فالمخيال إذن هو الخلق المستمر وعلى وجه الخصوص غير المحدد بالأوجه والأشكال والصور التي لا يمكنها إلا أن تحمل تساؤلاً ما، فلا يكون ممكناً. وحسب كاستورياديس، أن نفك في المجتمع والتاريخ بوصفهما قطبان للخلق الأصلي إلا انطلاقاً من المخيال، هنا المخيال الذي يتكون من شقين هما:

#### 1- المخيال المؤسس:

وهو نتاج الفعل الإنساني الجماعي المنشئ للدلائل الجديدة التي تقلب الدلالات التاريخية السائدة.

2- المخيال المؤسس: ويعني مجموع المؤسسات الناشئة المحسدة للمخيال المؤسس والتي تحمل دلالاته سواء المادية المتمثلة في الوسائل والتقنيات، وأدوات القوة، أو اللامادية المتمثلة في اللغة، المعايير والقوانين.

وسيصطلاح كاستورياديس لفظ "الحقل غير الحتمي" للفعل الاجتماعي بمصطلح الاجتماعي - التاريخي الذي يعني الإطار الذي يُنشئه الأفراد ويعدّلونه، وذلك دون أن يقوموا بتعطيل وجود المؤسسات التي تؤسس لوجودهم الاجتماعي، حيث يتكون مفهومه عن التاريخ بوصفه وحدة وتوتر بين المخيالين المؤسس والمؤسس: فلا وجود لأي مجتمع دون مؤسسات فعلية للسلطة (المؤسس)، ولكن يجب أن تضع في الوقت ذاته، ولضرورات أنطولوجية، إمكانية تجددها الذاتي (المؤسس)، سواء تم التسليم به على هذا النحو كما في المجتمعات الأوتونومية، أو تم رفضه كما في المجتمعات الهيتيرونومية، فينتهي كاستورياديس إلى إعادة تأسيس جديد لمضمون المشروع الثوري بوصفه سعياً إلى

<sup>1</sup>- Ibid, p 388

اكتساب المجتمعات القدرة على الاستئناف المستمر لمؤسساتها، مجتمعات تكون قادرة على التجديد الذاتي والفعلي ليس لمرة واحدة بل باستمرار.<sup>1</sup>

يعير كاستورياديس كل انتباهه إلى اللحظات التاريخية النادرة التي تكون فيها المؤسسة مازالت طرية، والتي هي ذاتها لحظة تأسيس المؤسسة الجديدة التي تكون في الحاضر، إذ في كل مرة يوجد ابتداق للمجتمع المؤسس في المجتمع المؤسس، بوصفه تدميراً ذاتياً للمجتمع المؤسس (السابق) من قبل المجتمع المؤسس (الحاضر)، أي خلق ذاتي لمجتمع آخر مؤسس، وحتى في اللحظات التي لا يحقق فيها المجتمع إلا مهمة "الحفظ على ذاته" فإنه لا يحقق ذلك إلا بتغييره الدائب.<sup>2</sup>

ويحدث هذا التغيير ضمن "لحظة انخطافية، بانفصالها عن الخط النساب للزمن" ينشئ فيه شيئاً جديداً بالطلاق، وهي الوسيلة الوحيدة لاستخلاص النواة المنتجة التي تشرف على إعادة إنتاج المجتمع، وتتصف السيرورة الاجتماعية عند كاستورياديس بإنتاج أشكال (اجتماعية) مختلفة جذرياً بتوظيف خلاق لذاتها بشكل مستمر ودائم.<sup>3</sup>

فكل المجتمعات ليس عليها فقط أن تحكم نفسها بنفسها بل أن تقوم بتأسيس نفسها ذاتياً بطريقة صريحة، وهذا هو المعنى الفعلي وال حقيقي للديمقراطية: نظام تخضع فيه مسألة صلاحية القانون للتحيين بدوام مستمر، وحيث ينظر الفرد إلى المؤسسات بأنها هي التي تنظم حياته وبكونه من شارك في إنشائها، وأن يرى إليها أيضاً على أنها قابلة

<sup>1</sup> - كورنيليوس كاستورياديس، تأسيس المجتمع تخيلياً، تأسيس المجتمع تخيلياً، ترجمة: ماهر الشريف، دار المدى دمشق، الطبعة الأولى 2003، ص 388

<sup>2</sup> - يورغونهابرمس، القول الفلسفى للحداثة، ترجمة فاطمة الجيوشى، منشورات وزارة الثقافة، دمشق 1995، ص 504

<sup>3</sup> - المرجع نفسه، ص 505، وهو ما يوافق قول ابن خلدون: "و إذا تبدل الأحوال جملة فكانما تبدل الخلق من أصله وتحول العالم بأسره و كانه خلق جديد ونشأة مستأنفة و عالم محدث فاحتاج لهذا العهد من يدون أحوال الخلقة والأفاق وأجيالها والعوائد والنحل التي تبدل لأهلها" المقدمة، ص 43، نسخة دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، طبعة 2004

لتغيير، وفي هذه النقطة تحديدا تأتى الأهمية القصوى التي يوليهَا كاستورياديس لمسألة الأوتونوميا الفردية والجماعية.<sup>1</sup>

والأوتونوميا (Autonomie) أو التقنين الذاتي صفة تطلق على الكائن، الفرد أو الجماعة، الذي يشرع لنفسه بنفسه، ويحكمه قانون متميز خاص به، وينطبق هذا التعريف على ثلاث مجالات أساسية هي: المجال الوجودي، المجال الأخلاقي والمجال السياسي، ويقابله مفهوم التقنين غير الذاتي (Hétéronomie) الذي يخضع فيه الكائن لاعتبارات خارجية، وهو التقنين الذي يتصور كأنط أنه مناف للمبادئ الأخلاقية.<sup>2</sup>

#### -1 مفهوم الاجتماعي التاريخي:

يقترح كاستورياديس تصورا جديدا للمخيال، وتحديدا التفكير في الاجتماعي-التاريخي، وكذلك يقترح إعادة تأهيل لمفهوم الخيال الذي لم يكن ينظر إليه إلا بوصفه من ملحقات الذاكرة أو كمصدر للتوهّم، لكن عكس ذلك يأخذ المخيال عند كاستورياديس مكانة مهمة جدا<sup>3</sup>، ولكي يقوم كاستورياديس بهذه المهمة يعود إلى استقراء مفهومي المجتمع والتاريخ، من خلال التساؤل عن العلاقة التي بينهما، وليرم بعد ذلك لفحص التناولين النظريين الأساسيين حول المجتمع والتاريخ وهما النظريتان البنوية والوظيفية.

فيり كاستورياديس أن المجتمع والتاريخ قضيتان لا يمكن التعامل معهما إلا كمسألة واحدة ليس إلا، ألا وهي مسألة الاجتماعي- التاريخي، والسؤال عن دلالة الاجتماعي التاريخي يجمع في داخله السؤالين اللذين يفصل بينهما التقليد المتعارف عليه، فهو يفصل بين ما هو مجتمع وبين ما هو تاريخ.

والفحص السريع للتعریف التقليدي الفاصل بين المجتمع والتاريخ يعطينا الصياغة التالية للسؤالين:

<sup>1</sup>- La Découverte, Op Cit, p388 p 389

<sup>2</sup> - عبد الرحمن بدوي، الموسوعة الفلسفية، الجزء الأول، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، الطبعة الأولى 1948، ص 424 ص 425

<sup>3</sup> - Cornilius Castoriadis, l'Imaginaire comme tel, texte établi, annoté et présenté par Arnaud Tomés, Herman éditeur, Paris 2007Paris, P 49

أ- ما هو المجتمع؟ وتحديداً ما هي وحدة هوية ذاتية؟ أو ما الذي يجعل مجتمعاً متماسكاً في مجمله؟ بـ- ما هو التاريخ؟ وتحديداً كيف ولماذا يوجد تغيير زمني لمجتمع؟ وبحصول التغيير، هل ثمة ظهور لـ"الجديد" في هذا التاريخ، ولماذا يعني هذا الظهور للجديد؟

فممّ ولماذا توجد مجتمعات عديدة وليس مجتمعاً واحداً؟ وممّ ولماذا يوجد اختلاف بين المجتمعات؟ فإذا قيل بأن الاختلاف بين المجتمعات إنما هو اختلاف ظاهري فقط، فلماذا إذن يوجد هذا الظاهر، أو لماذا يظهر الماثل على أنه مختلف؟<sup>1</sup> إن الإجابات العديدة المقدمة منذ بدايات التفكير في السؤالين يمكن إرجاعها إلى نموذجين جوهريين هما:

1- النموذج الأول: هو النموذج الفيزيقي الذي يرجع المجتمع والتاريخ إلى الطبيعة، سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة، وإن بصورة آتية أو بعدية، وهذه الطبيعة هي في المقام الأول الطبيعة البيولوجية للإنسان، وهي مظاهر يتجدد باستمرار ويبقى ثابتًا على الدوام، وتعتبر النزعة الوظيفية الممثل الأكثـر التصاقاً بوجهة النظر هذه، وذلك من خلال طرحها للثبات في الحاجات الإنسانية، وكذا لتفسيرها للتنظيم الاجتماعي على أنه مجموع الوظائف الهدافـة إلى تلبية هذه الحاجات.

وهو تفسير لا يقدم شيئاً عند كاستورياديس، وبوجه خاص في مسألة الاختلاف بين المجتمعات التي يجري حذفها أو تغطيتها بتحليل فارغ يعبر عنه كاستورياديس بأنه لغو، فينبغي هنا العثور على نواة عصبية على التغيير لحاجات مجردة تكتسب هنا وهناك تعينات مختلفة أو وسائل تلبية مبتدلة، أما اللجوء إلى التحليل الوظيفي (الفيزيقي - الطبيعي) فيتم للتغطية الواقعـة الأساسية المتمثلة في أن الحاجات الإنسانية هي حاجات اجتماعية وليس مجرد حاجات بيولوجية.<sup>2</sup>

2- النموذج الثاني: فهو النموذج المنطقي الذي يتخذ أشكال شتى بحسب المفهوم الوارد ضمن هذه اللفظة (Log)، والمقصود بالمنطق في نهاية المطاف، وأيا كانت تعقيداته

<sup>1</sup> كورنيليوس كاستورياديس، المرجع السابق ص 244 ص 245

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص ص 245 247

السطحية، ترتيب لعدد محدود من القضايا وعناصرها المكونة لها، إذ بذلك تتكون لدينا البنوية التي هي الشكل الأكثر فقراً للمنطقانية، فبحسب البنوية فإن العملية المنطقية ذاتها إذا تكررت عدداً معيناً من المرات، فإنها ستفسر لنا التاريخ بمجمله إضافة إلى تفسيرها لمختلف صور المجتمع التي قد لا تكون سوى تركيبات مختلفة ممكناً لعدد محدود من العناصر غير الظاهرة.

وتتبدي سذاجة البنوية حسب كاستورياديس في عجزها عن تفسير مجموع العناصر التي تتناولها والتي تكون الكون على ما هو عليه (*être ainsi*)، وكيف تحول خلال الزمن، فالاختلافات الطبيعية (مذكر مؤنث، جاف ورطب، منخفض مرتفع) تبدو من المسلمات التي عثر عليها البشر، وهي بمثابة حجارة رابضة فوق الأرض يأخذ منها البشر وفقاً لحصيلة لعبة المصادفة، فتؤخذ كما لو كانت معطاة عبر موقع آخر ومنذ الأزل، في حين أن هذه الألفاظ - **كالالفاظ** - هي من إبداع المجتمع المعنى.

وبالمقابل يزعم المنطق الموظف بأنه يحرك كافة هيئات الكون المادي والروحي، ولا بد لهذا المنطق حينئذ أيضاً أن يولد كل هذه الهيئات بعضها من البعض الآخر، وكلها انتلاقاً من العنصر الأول أو الأخير ذاته، بوصفها هيئات له أو كلحظات ضرورية ضمن هذا النظام الضروري الذي ينبغي لها المنطق وبالضرورة أن يشكل جزءاً منه، كأنكاس أو صدى أو تكرار أو تتوبيخ.<sup>1</sup>

فيخلاص كاستورياديس أن النموذجين اختراليين يحولان المجتمع إلى مجرد تأليف من عضويات حية، أو عضوية خارقة مشتملة على حاجاتها ووظائفها، أو مجموعة طبيعية منطقية من العناصر، أو لمنظومة من التعيينات المعقولة، فلا يُبقي للمجتمع أي شيء يشكل الكون الخاص للجتماعي، كما لا يُبقي أي شيء ذي أهمية من التاريخ، من التحول الزمني الناتج داخل المجتمع وعبر المجتمع، هكذا تختزل وحدة وهوية المجتمع.<sup>2</sup> إن الإشكالية التي تقدم إجمالاً لها ليست سوى تجسيد داخل ميداني المتخيل والاجتماعي التاريقي لهذا التناقض، فالفيزيقية والمنطقية، العليّة والغائية، ليست سوى طرائق لم

<sup>1</sup> - المرجع نفسه، ص 246 ص 247

<sup>2</sup> - المرجع نفسه، ص 248

المنطق الهوياتي ورسوماته الأساسية على المجتمع والتاريخ، ذلك لأن المنطق الهوياتي هو منطق التعيين الذي يتحدد بحسب الحالات، بوصفه علاقة سبب بنتيجة، وسيلة بغائية أو علاقة تضمين منطقي.<sup>1</sup>

## 2- الدلالات المخيالية الاجتماعية:

تفترض صناعة الرموز التي هي الواقع الثابت للدلائل وجود مخيال يسبق وجود الرموز، وذلك من أجل إضفاء المعنى على تلك الرموز ومن ثم يصبح المخيال حاملاً للدلائل التي يتصرف الإنسان وفقاً لها، فمثلاً من أجل أن استطيع تقديم قربان معين (الجسد المسيح مثلاً) أو لأي علم يكون رمزاً لمعنى معين، يجب أن أتوفر على إمكانية التخيل، أن أفترض وجود شيء أو علاقة ما غير حاصلة بالفعل، هذه الإمكانية تمثل في أنها تقدم صورة شيء ما ليس في متناول الحس، وهذا هو ما يسميه كاستورياديس بالخيال الجذري.<sup>2</sup>

هذا المخيال الذي هو ضروري لإعطاء معنى للمؤسسات، لا يفسر فقط من خلال وظيفته، إنه ليس نتاج لفرد أو مجموعة من الأفراد، تماماً مثلما لا يمكن أن يكون التأسيس الاجتماعي للغة ناتجاً عن تشريع أحد كبار النحويين الذي يكون وبالضرورة قد تعلم اللغة التي يسعى لأن يؤسس لها نحواً، لهذا يجب أن نسلم بوجود مخيال اجتماعي ليس هو نتاج فرد أو مجموعة أفراد، ولكنه نتاج جماعي غير معروف (Anonyme) وهذا لا يفهم منه بالضرورة على أنه أمر فردي.

ونتيجة لذلك يجب الخروج من الانتلوجيا الموروثة، التي لا تعتبر الحقيقة إلا متمثلة في الواقع والذوات والأشياء والأفكار، من أجل اعتبار المخيال الاجتماعي أو المؤسس، الذي هو الوحيد الذي يسمح بظهور المؤسسات وهو ما يسميه كاستورياديس بشكل أكثر عمومية المجتمع المؤسس.

إن دور المخيال الاجتماعي يمكن أن يلخص أيضاً كما يلي: لا يمكن لمجتمع أن يعيش (ليس بالمعنى البيولوجي البسيط)، ولكن الحياة الاجتماعية الحقيقة أي تلك التي

<sup>1</sup> - المرجع نفسه، ص 252

<sup>2</sup> - Cornelius Castoriadis, l'Imaginaire comme tel, texte établi, annoté et présenté par Arnaud Tomés, Herman éditeur, Paris 2007, p 54 p 55

يكون لها معنى) دون خلق عالم من الدلالات المخيالية الاجتماعية الذي يأخذ معنى النهايات التي تنتظم وظيفيا.

كل مجتمع يجاهه ضرورة تقديم أجوبة على عدد من الأسئلة التي لا مفر منها: من نحن كجامعة؟ من نحن بالنسبة إلى بعضنا البعض؟ أين وفي أي موقع نحن؟ ماذا نريد؟ وما الذي نرغب فيه؟ ما الذي نحن بحاجة إليه؟ إنه سؤال الهوية في علاقتها بالعالم، وأي عالم؟ حيث لا نبحث إلا عن النهايات.

دور الدلالات المخيالية الاجتماعية هو تقديم إجابات لتلك الأسئلة، إجابات لا يستطيع لا الواقع ولا العقلانية تقديمها، وذلك لكون السبيل التي تعرف منها المجتمعات ما تراه بالنسبة إليها الواقع والعقلانية هي أساساً سبيل المخيال، فكل المجتمعات مثلًا يفرض عليها أن تحدد بصفتها المجتمعات: ما هو هذا النحن؟ إلى ماذا نشير عندما نتكلم عن مجتمعاتنا؟ هذا النحن هو ليس ببساطة الإشارة إلى معطى ذاتي أو موضوعي، والاسم الذي نمنحه للجماعة لا يتضمن الرمز، إنه يحمل عدداً من المفاهيم التي يعاد صياغتها ضمن الدلالة الاجتماعية.

إن الدلالات المخيالية الاجتماعية هي إذن تلك التي توفر إمكانية توحيد جميع المؤسسات الاجتماعية لمجتمع ما، وتأخذ المجتمع في شموله (*tenir ensemble*)، وهذا الذي يسمح بالكلام عن كل اجتماعي فهو ليس مجرد أمر يخص فرداً أو مجموعة، ويدعوه كاستورياديس بالخيال لكونه لا يتطابق ولا يستند من خلال اختلافات العناصر العقلية والواقعية ولأنها توضع بواسطة الإنسان.

والمظهر الأول للدلالات المخيالية الاجتماعية يبدو متميزاً بحيث لا يمكن استنتاج أية دلالة من العقلاني والواقعي بشكل مستقل عن المخيال، فلا يوجد أكثر مخيالية من اعتبار الكل عقلانياً إلا الاعتقاد بأن العالم مليء بالروح أو بالله، وأن العقلانية الحديثة المهمة هي شكل من الأشكال التاريخية للمخيال، لكن المخيال، في الآن ذاته، ليس إلا جزء من الواقع.

والمخيال ليس جزءاً من الواقعي لكونه ليس "إعادة إنتاج" بسيطة (ولو ناقصة أو مشوهة)، فلو أخذنا الدلالة المخيالية لكلمة الله فإنها تتصل حتماً بالتجارب الواقعية، مثل تلك

التي تحدث عنها فرويد في معرض حديثه عن العاطفة الدينية، لكن لا يمكن لأية تجربة واقعية قادرة على محايضة دلالة لفظة الله.

والبعد الثاني للدلالات التي يمكن نعتها بالخيالية هي تلك التي وضعت عبر آلية الإبداع، وهذا المعنى الثاني للدلالات المخيالية الاجتماعية هو معنى مذهل: فماذا يعني آلية الإبداع؟ أليس للإبداع مميزات غير عقلانية؟ ومن ثم لا تصدر هذه الدلالات من أي مكان أو من أي شيء؟ هنا تحديداً يجب القيام بالجهد الجبار للقطيعة مع الطريقة التقليدية للتفكير في الاجتماعي - التاريخي.

على أن الاعتراف بإبداع الدلالات المخيالية (أو المؤسسات، الرموز، الأنظمة السياسية...) إلخ) ليس حسب كاستورياديس أكثر من حضورنا الصحيح في التاريخ: فمثلاً الديمocratie اليونانية القديمة أو الرأسمالية الغربية في القرن الثامن عشر والتاسع عشر، هو الدليل البسيط على تأهلنا لإبداع الاجتماعي - التاريخي الخاص بنا، هذا الإبداع الذي لا يحمل في طياته أي غموض: وهو ينطلق من كون الخيال ليس "إعادة إنتاج" بسيطة لكل ما تمكن معاينته، بل هو إنتاج جديد للحقائق أو كما يسميه كاستورياديس الأشكال الجديدة، ويمكننا أن نشرح هذه الأشكال بتبيين معناها لكن لا نستطيع تفسيرها بإحالتها إلى مصادرها، بإمكاننا شرح المعنى أو بيان شروط إمكان وجودها، ما هي الوسائل التي استعملتها سابقاً فالديمقراطية اليونانية لم تكن ممكنة دون وجود الرق.

وتفسير عملية الإبداع مستحيل ويضعننا في تناقض ضمن السياق، فإذاً أن نقود الدلالات المخيالية الاجتماعية انطلاقاً من عناصر خاصة مثل التفسيرات البيولوجية أو الاقتصادية بحيث نسقط في السخافة، أو باستطاعتنا القيام باختزال الدلالات الجديدة إلى إطار جديد مختلف من العناصر المعطاة (كما تحاول البنوية فعله)، إذن فليس في مقدورنا فهم المستجدات كما هي، فليس في مقدورنا الآن إلا الاعتراف بالدلالات المخيالية الاجتماعية مجتمع ما، واعتبار التاريخ كحالة إبداع ثابتة للدلالات المخيالية. باختصار، "من المستحيل فهم الماضي، فهم ما كان تاريخاً، خارج الخيال" ومع هكذا اعتراف بدور الخيال الجندي، بوصفه مخيالاً مؤسساً، ينشق وجود جماعي غير متعين،

كاستورياديس من هذا المنطق يؤسس لقطيعة مع الفلسفة التقليدية التي تنزع إلى

التجاهل أو التقليل من دور الخيال في الإطار الاجتماعي - التاريخي<sup>1</sup>

### 3- المجتمع ورسومات التعايش:

يطرح المجتمع نفسه بنحو مباشر بوصفه تعايشاً لطائفية من الحدود أو الكيانات من أنساق مختلفة، فعلى ماذا يستند الفكر الموروث في تصوره للتعايش ضمن مجال متنوع الحدود، أي بمكونات مختلفة من حيث طبيعتها، إذ هنا يطرح كاستورياديس بدليلاً عن المنطقين العلي والغائي الأحاديين، ويسعى إلى طرح متنوع للعناصر المكونة له، على أن تكون إمكانية تحليل للعناصر بصفة جزئية وقابلة للتحليل بشكل أحادي.

وذلك في الوقت الذي تكون فيه هذه العناصر المتنوعة متربطة فيما بينها بعلاقات تعين سببي، خطي ودائي بالتبادل، قطعي واحتمالي، ينتج عنها ولابد وجود إمكانية إعادة تركيب، واقعية أو مثالية مجردة، من دون نقسان أو زيادة للمنظومة انطلاقاً من عناصرها ومن هذه العلاقات المعتبرة على أنها الوحيدة التي تملك حقيقة واقعية أخيرة، أما إذا تماثل التعايش مع العناصر المكونة للمجتمع مع منظومة منطقية فهذا يمكن من إحالة هذا التعايش إلى عناصر تأسيسية متميزة جداً ومحددة جداً.

ويقدر ما يكون المجتمع مختلفاً عن مجموعة أو عن تراتب مجموعات فمن المستبعد أن يكون بالإمكان تصور مكونات جوهرية، إلا أن الفكر الموروث ومنذ وقت مبكر ولاسباب عميقية، حسب كاستورياديس، قد انقاد إلى إضفاء الجوهرية والثبات على تلك العناصر والمتمثلة في: الأفراد، الأشياء، الأفكار والمفاهيم.

لقد جرى التأكيد ومنذ قرون على أن الإنسان لا يوجد كإنسان خارج المدينة، وجرى الإعلان عن عدم إمكانية إرجاع الاجتماعي إلى الفردي، لكن ظهر أن انتظام المجتمع لا يكون إلا انطلاقاً من الفرد بوصفه سبباً فاعلاً أو نهائياً، وظهر أن تركيب المجتمع لا يكون إلا انطلاقاً من الفرد.

فيسؤال كاستورياديس: ولكن كيف يمكن تصور المجتمع بوصفه تركيباً لعناصر كانت قد وجدت قبله، وذلك عندما لا تكون هذه العناصر إلا ضمن وعبر المجتمع؟ ثم يجيب:

<sup>1</sup> - Ibid, p 54 p55

ربما لن يكون من الممكن ترکيب مجتمع –إذا صحت العبارة- إلا انطلاقاً من أفراد كانوا اجتماعيين أصلاً، ويحملون أصل الاجتماعي في دواخلهم<sup>1</sup>، وذلك في استعادة صريحة للجدل الكلاسيكي الفرنسي حول أولوية الفرد أو الجماعة بين دور كايموتارد. ليس المجتمع شيئاً ولا ذاتاً ولا فكرة وليس هو مجموع الأشياء والذوات والأفكار، فتلوك العناصر والعلاقات فيما بينها لا يمكن أن تحدد هوية مجتمع ما، أي خصوصيته، ذلك في نفس الوقت الذي لا يمكن التعبير به عن المجتمع إلا من خلال الذوات والأشياء والأفكار والعلاقات الموجودة بينها، والعلاقات لا تكون على ما هي عليه إلا لأنها قد تأسست على هذا النحو من قبل المجتمع المحدد.<sup>2</sup>

إنه لا يمكن تخطي هذه الصعوبات إلا على مستوى اللفظ والكلام، كما لا يمكن تخطيها أيضاً إلا على مستوى الكلام، فعند التأكيد على وجود كلية اجتماعية للمجتمع بوصفه كلاً مختلفاً عن أجزائه يتجاوزها، وهذا حسب كاستورياديس يتناسب مع الفكر الموروث الذي يتصور أن الكل ليس هو منظومة الأجزاء المشكلة له، كمثال رسم الجهاز العضوي وهو رسم يرتبط بالنقاشات حول المجتمع.

فالحديث عن الجهاز العضوي بالمعنى الحقيقي أو المجازي، يعني الحديث عن منظومة من الوظائف المتراكبة، المتعينة انطلاقاً من غاية هي الحفاظ على الذات وإعادة إنتاجها، وذلك لتأكيد استمرارية الماهية عبر الزمن والأحداث<sup>3</sup>، فماذا قد تكون الذات التي ينبغي عليها هنا أن تحافظ على ذاتها وتعيد إنتاجها؟ وما هي الوظائف الثابتة والمتعينة الخاضعة لها المحافظة وإعادة الإنتاج؟

إن الربط بين هذه الوظائف وبين الميادين التي تنتشر داخلها النشاطات الاجتماعية كالاقتصاد والحقوق والسياسة والدين يجب أن يجعلنا نأخذ بعين الاعتبار العلاقة بين هذه القطاعات أو الميادين وبين التنظيم أو الحياة المشتركة للمجتمع، حيث يتعلق الأمر

<sup>1</sup> كورنيليوس كاستورياديس، المرجع السابق، ص 254 ص 255

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص 256

<sup>3</sup> المرجع نفسه، ص 256

هنا بالتعايش بين الكل (المجتمع) وأجزائه (اقتصاد، قانون، سياسة ودين)، وأيضاً حتى بنمط وجود تلك الأجزاء ذاتها، وهذا ما يعجز الفكر الموروث عن إدراكه. ولا تتعلق المسألة هنا بتشكل المجتمع انطلاقاً من قطاعاته أو حقوله، فلا يمكن تصور اقتصاد من دون أن يكون اجتماعياً، فالأمر إذن يتخطى هذه البداهات ليصل إلى واقع المجتمع الذي يعيش فيه المنظر ذاته، وهو الواقع الذي تأسست فيه ومنذ أمد طويل المقولات الحقوقية والمقولات الدينية كمقولات متميزة نسبياً، والتي يعممها المنظر على الماضي دون أن يتساءل عن شرعية هذا التعميم، انطلاقاً من افتراضه توافق مقولات مجتمعه الخاصة مع جوهر كل مجتمع وتعبر عن ترابطه الحقيقي، فالأمر إذن لا يتعلق بمظاهر مجردة ملزمة للموقع المنتخب من أجل ملاحظة الموضوع أو لمقولات مستخدمة لإدراك الموضوع، وذلك أصلاً لأن الواقع والمقولات لا توجد إلا انطلاقاً من تأسيس اجتماعي تاريخي خاص وتابعة له وبشكل غير اختياري<sup>1</sup>.

هنا يصل كاستورياديis إلى مرحلة يربط فيها بين الإدراك النظري ل الواقع الاجتماعي وبين الموقع الذي يوجد فيه المنظر بشكل انعكاسي، وذلك بناء على مسلمة أن يكون المجتمع المنظر له هو مجتمع المنظر ذاته، إذ ينتقل بنا إلى مسألة النسبية في البحث الاجتماعي، ثم يستطرد كاستورياديis بالقول بأنه ليس في مقدورنا النظر إلى قطاعات الحياة الاجتماعية بأنها منظومات جزئية متتسقة، وذلك لأننا سنصادف حتماً غلبة أو استقلالية قطاع ما على آخر، في المجتمع معطى، لكن ما هي هذه القطاعات؟

قبل إعطاء الجواب يتصور صاحب التأسيس التخييلي للمجتمع أنه علينا أن نأخذ بالاعتبار وبصورة كلية واقعة لا يمكن ردها ومفادها: "أن ليس ثمة تمفصل معطى بصورة نهائية للاجتماعي، لا واقعياً ولا تجريداً"، وهذا التمفصل يكون وباستمرار حاصلاً بالنسبة للأجزاء التي تكونه كما يكون أيضاً حاصلاً بالنسبة للعلاقات التي يقيمها بين الأجزاء والكل الاجتماعي، ومن ثم يكون خلقاً للمجتمع المعنى، وهذا الخلق هو تكوين أنطولوجي حاصل بمثابة طرح المثال (Eidos)، ذلك أن ما هو مطروح وقائم بشكل مستمر ومؤسس في كل مرة إنما هو ما يتجسد في موجودات مادية ملموسة لكنه يتتجاوز الصفة

<sup>1</sup> - المرجع نفسه، ص 256 ص 257

المادية لكي يسمح بإعادة إنتاج محدودة لأشكاله التي تتغير لكن وفق النموذج المحدد سلفاً، ومن ثم فلن تكون التغييرات الحاصلة إلا أنصبة لهذا النموذج، وذلك أن تكون متعينة مثل السكين - المطرقة - العجلة - القارب أو كلمة مثل الزواج - الشراء - المعبد - الكتاب - المدرسة.

لكن تكون غير منفصلة في مستوى آخر مع أنه غير منفصل، أي بمعنى تمفصل كل مجتمع مع القطاعات أو الميادين التي يوجد في داخلها، ومن خلالها يتأسس المجتمع ككيفية ونموذج، دون نظير ولا سابق في منطقة أخرى للكون.<sup>1</sup>

فيطرح هنا كاستورياديس محاولة في تجاوز الطرح الطبيعي القائم على مفاهيم العضوية والوظائفية والطرح المنطقي القائم على مماثلة الواقع وتغييرها بالتصورات العقلية وأن لا تخرج عن احتمالاته، وذلك بتقديم مفهوم المخيال الجندي الذي يشير فيه إلى الدلالات والمعاني التي يحملها ويوظفها المجتمع الإنساني والتي تستعصي على إدراك الطبيعيين والمنطقين على السواء، وهو في ذات الوقت لا يدعى اختلاف نموذج معرفي جديد بقدر ما يسعى لتتوسيط المنطقين بشكل متكامل وضمن نطاق موحد هو نطاق المجتمع الذي يشكل الفرد نواته الرئيسية.

ولعل الغاية القصوى من هذا الطرح النقدي عند كاستورياديس يتمثل في الانفتاح على الإمكانيات التي يُقبل المجتمع على التشكيل ضمنها بوصفها توقعات غير دقيقة من جهة، ومن جهة أخرى آخنة بعين الاعتبار إمكان إبداع نماذج اجتماعية من خلال آلية مرکوزة في النفس الإنسانية هي المخيال، وذلك ضمن مستوى يجعل منه بديلاً عن الأطروحتات الكلاسيكية التي تنطلق من تصورات موجلة في السببية تحاول اجتذاب المستقبل إليها وإلى نموذجها المعرفي.

<sup>1</sup> - المرجع نفسه، ص 258 ص 259